مقتطفات من كتاب
العرب وجهة نظر يابانية
نوبوأكي نوتوهارا

حدوتة كتاب

إليك...لأنك تعرف لماذا!؟

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com

لقد فهمت ان كل ما يخص الملكية العامة يعامله الناس كانه عدو فينتقمون منه ولذلك نجد المقاعد في الحدائق العامة مكسرة او مخلوعة ونجد معظم مصابيح الشوارع محطمة. كما ان دورات المياه العامة قذرة بصورة لا توصف. وحتى المباني الحكومية فقد لحق بها كل انواع التخريب الممكنة. لقد فكرت طويلا في ظاهرة تخريب الممتلكات العامة وفهمت ان المواطن العربي يقرن بين الاملاك العامة والسلطة وهو نفسيا في لا وعيه على الأقل ينتقم سلبيا من السلطة القمعية فيدمر بانتقامه وطنه. ومجتمعه بدلا من ان يدمر السلطة نفسها. تلك المظاهر السلبية التي ذكرتها اختفت تماما من المجتمع الياباني. ولكنها لم تختف منذ زمن طويل. لقد استمرت الي ما بعد الحرب العالمية الثانية بسنوات. ولكننا انتصرنا عليها وتحررنا منها وعرفنا مسؤوليتنا عن الملكية العامة معرفة جيدة. لا أستطيع الفصل بين القمع وعدم الشعور بالمسؤولية في المجتمع العربي. كيف يتبدى الامر للآخر غير العربي؟ بالاخص نحن القادمين من اليابان؟

القمع اذا كان لا يعرفه. ولكن الحاكم في البلدان العربية يبقى حاكما مدى الحياة سواء اكان ملكا او سلطانا او أميرا او رئيس الدولة او رئيس جمهورية الا اذا أغتيل او حصل انقلاب مسلح ضده. على اي حال نحن لا نفهم هذا في اليابان. نحن نظن ان الحاكم يجب ان يشعر بالمسؤولية تجاه شعبه وعليه ان يعطي مجالا لغيره لكي يخدم هذا الشعب. اما في الوطن العربي فالسلطة والشخص شيء واحد لا يمكن الفصل بينهما. فالحاكم العربي ما زال يتمتع بالامتيازات التي كان يتمتع بها الحاكم في العصور ما قبل الحديثة. بالطبع هناك استثناءات ولكنها الاستثناءات التي تثبت القاعدة كما يقال. والمعيار الوحيد لكرامة المواطن ووطنيته هو مقدار ولائه للحاكم وطاعته له والتسبيح بحمده في جميع الاوقات والظروف والمناسبات وهذا كله غريب علينا نحن اليابانيين في الوقت الحاضر على الاقل.

نضمن عدم ظهور مركزية فردية مهيمنة. اذكر على سبيل الدعابة الواقعية ان اليابانيين الذين يقيمون اكثر من شهرين في الخارج يسألون سائق التاكسي الذي يوصلهم الى بيوتهم من المحطة يسألون عن اسم رئيسنا الحالي. واحيانا يسمعون اسما جديدا. ولو افترضنا ان الزعيم السياسي استثنائي فاننا نعرف ان مهام قيادة الدولة أوسع من اي فرد استثنائي.

وما دمنا في مجال التعليم فان علينا ان نقر بان وضع المعلمين في الدول العربية غير النفطية لا يحسدون عليه. فالمرتبات متواضعة للغاية والعلاوات غائبة والتشجيع غير موجود بالاضافة الى غياب التقدير الاجتماعي لمكانة المعلم وهذا كله على عكس مما هو عندنا في اليابان. فمثلا لا يحق لاحد ان يفصل معلما او مدرسا او استاذا جامعيا من عمله. حتى البرلمان ليس له هذه الصلاحية والمعلم محمي بقوة القانون وقوة تقدير المجتمع ما لم يرتكب جريمة بالمعنى القانوني. نحن نتشدد في اليابان في التعليم الى درجة ارهاق التلميذ احيانا خاصة في المراحل ما قبل الجامعية.

منذ عشرين سنة كنت أجلس في بيت العمدة في ريف مصر وكنا نرى الشارع مباشرة. ولقد شاهدت يوما طفلا يلف خيطا على عنق عصفور صغير ويجره وراءه والعصفور يرفرف على التراب. كان الطفل وكانه يجر حمارا او كلبا! وكان الناس يمرون بجانب الطفل دون ان يقولوا له شيئا! اذن كان المنظر طبيعيا بالنسبة لهم؛ طفل يتسلى بلعبة! لقد فهمت الامر وما شابهه على النحو التالي؛ ضعيف تحت سيطرة قوي. والناس يقبلون سلوك المسيطر القوي ويرضخون له. أي يسمح المجتمع ان تسيطر قوة على اخرى اضعف منها. وبالنسبة لي فانني أتساءل؛ اذا سمح المجتمع بهذا المنظر فالي اين سيصل؟

مسؤولية العمل والنظر

العربي بصورة عامة يخاف الله. خلال اقامتي الطويلة في مصر كنت أحتاج احيانا عاملا لتصليح أنابيب الماء او لتصليح شيء ما في البيت وكان اولئك العمال يأخذون مني اضعاف أتعابهم لاني اجنبي ربما ولكنني اهتديت الى طريقة تخفف من جشعهم احيانا فكنت أقول للعامل مثلا؛ ألا تخاف الله؟ انا سأطالبك بالنقود الزائدة التي اخذتها مني يوم القيامة. الجميع كانوا يخافون فعلا ويأخذون أجرهم في حدود ما كانوا يسمونه الحلال. لكي نفهم سلوك الرجل العادي في البلدان العربية. علينا ان ننتبه دائما لمفهومي الحلال والحرام.

تلك العبارات ان الحكومة لا تعامل الناس بجدية بل تسخر منهم وتضحك عليهم، فهل يستطيع المرء ان يتجاهل الصلة القائمة بين هذا الاسلوب الذي يستغبي الشعب والتوتر الذي يسيطر على جموع الناس العاديين؟

عندما يعامل الشعب على نحو سيىء فان الشعور بالاختناق والتوتر يصبحان سمة عامة للمجتمع بكامله.

بعد غروب الشمس يهب نسيم مريح يعبر مدينة القاهرة، ولكن رغم بركة الطبيعة وبركة نهر النيل الذي يرسل نسيما منعشا فان شعور الناس المكسر في النهار يستمر حتى النهار التالي!

كل هذا يعني غياب حرية الرأي. وحرية الكلام. عندنا في اليابان نقول عندما لا نستطيع ان نتكلم بحرية: عندما أفتح فمي فان هواء الخريف ينقل البرد الى شفتي. والعربي عندما لا يستطيع ان يصرح بما في نفسه عليه ان يقول تحت لساني جمرة..

ذلك ان ظروف المجتمع العربي الشديدة تحتاج الى جمرة بدلا من تعبيرنا عن البرد.

وفي سياق الكلام عن الحقيقة فانني أضيف ان الناس في الوطن العربي يخبئون الحقائق التي يعرفونها حق المعرفة، فعلى سبيل المثال زرت شخصيا منطقة تدمر خمس مرات وزرت متحفها ولكنني لم اعرف ان فيها سجنا مشهورا اسمه «سجن تدمر» بالطبع حتى الان لا أعرف موقع ذلك السجن! ان الخوف يمنع المواطن العادي من كشف حقائق حياته الملموسة. وهكذا تضيع الحقيقة وتذهب الي المقابر مع اصحابها.

انني أجد نفسي مضطرا لان اضيف بلغة صريحة مباشرة؛ انني أرى ان الحرية هي باب الانتاج وباب التواصل والحياة النبيلة ولذلك أرى القمع داء عضالا مقيما في الوطن العربي والعالم وما لم نتخلص منه فستفقد حياتنا كبشر الكثير من معانيها.

بعد عشر سنوات من الزيارة الاولى كنت في القاهرة نفسها، ولكن كانت رغبتي في الخروج الي الشارع قد ذبلت، كنت أريد ان أقلل عدد مرات خروجي قدر الامكان، لم يكن السبب انني أكره الغبار والضجة وحرارة الشمس القوية بل كان السبب هو انني كنت أرى توترا شديدا يغطي المدينة كلها. ولكنني لا أستطيع ان أتجاهل حياة الناس في هذه المدينة. كانت وجوههم تدخل الى عيني وهم يمشون وكأن شيئا ما يطاردهم. وجوه جامدة صامتة وطوابير طويلة من الواقفين امام "الجمعية" ومواقف الباص وغيرها، لقد رأيت الباصات المكتظة تجري بينما يتعلق ركاب بالشبابيك والابواب! يريد الناس ان يركبوا بأي ثمن وفي هذا الازدحام المحموم ينسى الكثير من الرجال والنساء السلوك المحتشم الذي يوجبه عليهم الاسلام كمسلمين. حتى في التاكسي يواجه الراكب اضطهادا فالسائق يختار الراكب حسب المكان الذي يريد الذهاب اليه، ويرفض ان يقل الشخص الذي لا يعجبه شكله او المسافة التي سيقطعها، شيء لا يصدق عندنا في اليابان. باختصار التوتر يغطى الشارع، توتر شديد تتوقع ان ينقطع في اي لحظة. هذا التوتر يجعل الناس يتبادلون نظرات عدوانية ويزيد توتر المدينة نفسها اكثر فاكثر.

الناس صامتون لا يتحدثون ولكننا نسمع صرخة من خلال ذلك الصمت الخانق، صرخة تخبر عن نفسها بوضوح وقوة. وها أنذا أتلمس جذور تلك الصرخة واسبابها وأقدم بعض النقاط التي تسم الشخصية العربية المعاصرة وهذه الملاحظات التي سأذكرها هي نتائج تجاربي في الاقامة في مصر خاصة والبلدان العربية الاخرى بصورة عامة. انني أؤكد باستمرار انني أعطيت القضية العربية عمري كله فمن حقي - ربما - ان أقول شيئا مباشرا أجمله في الافكار التالية!

تحت ظروف غياب العدالة الاجتماعية تتعرض حقوق الانسان للخطر. ولذلك يصبح الفرد هشا ومؤقتا وساكنا بلا فعالية لانه يعامل دائما بلا تقدير لقيمته كانسان. واستغرب باستمرارلماذا يستعملون كلمة الديموقراطية كثيرا في المجتمع العربي؟

ان ظروف الواقع العربي لا تسمح باستعمالها لان ما يجري فعلا هو عكسها تماما.

سافرت الى البلدان العربية وكنت قد تجاوزت الثلاثين من عمري ورأيت وقرأت وتحدثت الى الناس في كل مكان نزلت فيه. لقد عاينت بنفسي غياب العدالة الاجتماعية وتهميش المواطن واذلاله وانتشار القمع بشكل لا يليق بالانسان. وغياب كل انواع الحرية كحرية الرأي والمعتقد والسلوك وغيرها. كما عرفت عن قرب كيف يضحي المجتمع بالافراد الموهوبين والافراد المخلصين، ورأيت كيف يغلب على سلوك الناس عدم الشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع وتجاه الوطن ولذلك كانت ترافقني أسئلة بسيطة وصعبة: لماذا لا يستفيد العرب من تجاربهم؟ لماذا لا ينتقد العرب أخطاءهم؟ لماذا يكرر العرب الاخطاء نفسها؟ نحن نعرف ان تصحيح الاخطاء يحتاج الى وقت قصير او طويل. فلكل شيء وقت ولكن السؤال هو: كم يحتاج العرب من الوقت لكي يستفيدوا من تجاربهم ويصححوا اخطاءهم، ويضعوا أنفسهم على الطريق السليم؟!

أعتقد ان القمع هو داء عضال في المجتمع العربي ولذلك فان اي كاتب اوباحث يتحدث عن المجتمع العربي دون وعي هذه الحقيقة البسيطة الواضحة فانني لا اعتبر حديثه مفيدا وجديا. اذ لا بد من الانطلاق بداية من الاقرار بان القمع – بكافة اشكاله – مترسخ في المجتمعات العربية. هل هناك فرد مستقل بفردية في المجتمع العربي؟ المجتمع العربي مشغول بفكرة النمط الواحد على غرار الحاكم الواحد، والقيمة الواحدة والدين الواحد وهكذا.... ولذلك يحاول الناس ان يوحدوا اشكال ملابسهم وبيوتهم وآرائهم. وتحت هذه الظروف تذوب استقلالية الفرد، وخصوصيته واختلافه عن الاخرين. أعني يغيب مفهوم المواطن الفرد لتحل مكانه فكرة الجماعة المتشابهة المطيعة للنظام السائد. في هذه المجتمعات يحاول الفرد ان يميز نفسه بالنسب كالكنية او العشيرة او بالثروة او بالمنصب او بالشهادة العالية في مجتمع تغيب عنه العدالة ويسود القمع وتذوب استقلالية الفرد وقيمته كانسان يغيب ايضا الوعي بالمسؤولية. ولذلك لا يشعر المواطن العربي بمسؤوليته عن الممتلكات العامة مثل الحدائق العامة والشوارع ومناهل المياه ووسائل النقل الحكومية والغابات باختصار المرافق العامة كلها. ولذلك يدمرها الناس اعتقادا منهم انهم يدمرون ممتلكات الحكومة لا ممتلكاتهم هم. وهكذا يغيب الشعور بالمسؤولية تجاه افراد المجتمع الاخرين. فعلى سبيل المثال، السجناء السياسيون في البلدان العربية ضحوا من اجل الشعب ولكن الشعب نفسه يضحي باولئك الافراد الشجعان، فلم نسمع عن مظاهرة او إضراب او احتجاج عام في اي بلد عربي من اجل قضية السجناء السياسيين. ان الناس في الوطن العربي يتصرفون مع قضية السجين السياسي على انها قضية فردية وعلى اسرة السجين وحدها ان تواجه أعباءها! ان ذلك من أخطر مظاهر عدم الشعور بالمسؤوليته.

سأقدم مثالا فريدا لا نجده في ثقافتنا اليابانية، يقول الكاتب السنغالي «سينبين» عن نشأته: «انا ربيت في أسرة كبيرة بدلا من الاسرة النووية. طبعا عندي امي التي ولدتني ولكن ليس من الضروري ان أعرف من هي. ورغم انها ولدتني فهي لا تقوم بعمل شيء خاص لاجلي كابن خاص لها. من رباني هو أسرتي وليس أمي التي ولدتني وهذا الواقع لم يسبب لي الشعور بعدم الرضا او التشويه الاخلاقي.»

ان قمع الطفولة مسؤولية عامة في المجتمع العربي وهذا القمع يتخذ اشكالا مختلفة فعلى سبيل المثال لم أجد في مدينة عربية مرافق عامة خاصة بالاطفال. بالطبع هناك بعض الحدائق المتخصصة للاطفال. ولكن عندنا في اليابان مثلا نحسب حساب الطفل كجزء اساسي من بناء اي حي او مرفق عام.

الشخصية البدوية:

كتب الباحث الكبير جمال حمدان في كتابه الرائع "شخصية مصر" البدوي يختلف عن المستتر وراء الجدران والابواب. فالبدوي يواجه الطبيعة مباشرة ويتصل بها بلا انقطاع. من هذه المواجهة وهذا الاتصال تكونت شخصيته الفريدة. لقد استيقظ احساس البدوي. كان لا بد ان يكون احساس البدوي صلبا وقويا. بالاضافة الى الاحساس القوي، احتاج البدوي الى الصبر. ولكن الصبر الذي يحتاجه هو غير الذي نعرفه نحن المستقرين. انه صبر يتجاوز حود صبرنا وقدرتنا، صبر تجاه الطبيعة وهو مع ذلك – غير منطقي. من تجربتي المتواضعة في الحياة مع البدو عرفت انني – انا الذي تربيت في حضارة الاستقرار – لا أملك قوة الصبر مثل البدو وكمثال بسيط للغاية فانا لا أستطيع ان أجلس في الخيمة نهارا وأنتظر غروب الشمس كي تبرد الارض بعد ساعات ويهب النسيم المنعش ولكن البدو يستطيعون. ان مثالا بسيطا كهذا يقودنا على الفور الى الثقافة والى الصناعة بصورة خاصة فالصناعة قدمت لنا منتجات تحمينا من الطبيعة ومنتجات تبعد عنا الاشياء المزعجة ولذلك عندما نتكلم عن الاحساس في اليابان مثلا فاننا نتحدث عن رقة الاحساس ولكن ظروف المكان الصحراوي تدمر رقة الاحساس هذه عند الانسان.

وأضيف هنا ان الانسان بحاجة الى النقد من الخارج ومن الداخل ايضا مهما كان موقفه او وظيفته او صفته الاجتماعية وبرأيي ان الشخصية او الحزب السياسي او الهيئة الاجتماعية التي لاتقبل النقد تنحط وتتدنى يوما بعد يوم حتى تصل الى الحضيض.

كثيرا ما واجهت هذا السؤال في البلدان العربية: لقد ضربتكم الولايات المتحدة الامريكية بالقنابل الذرية فلماذا تتعاملون معها؟ العرب عموما ينتظرون من اليابانيين عداء عميقا للولايات المتحدة الامريكية لانها دمرت المدن اليابانية كافة. ولكن طرح المسألة على هذا النحو لا يؤدي الي شيء. علينا نحن اليابانيين ان نعي اخطاءنا في الحرب العالمية الثانية اولا ثم ان نصحح هذه الاخطاء، لاننا استعمرنا شعوبا اسيوية كثيرة ثانيا. واخيرا علينا ان نتخلص من الاسباب التي ادت الى القمع في اليابان وخارجها. اذن المشكلة ليست في ان نكره امريكا ام لا. المشكلة في ان نعرف دورنا بصورة صحيحة ثم ان نمارس نقدا ذاتيا بلا مجاملة لانفسنا بعدئذ نختار الطريق الذي يصحح الانحراف ويمنع تكراره في المستقبل. اما المشاعر وحدها فانها مسألة شخصية محدودة لا تصنع مستقبلا. من هذا الموقع نفهم مأساة هيروشيما وناغاساكي. ونفهم علاقتنا مع العالم. نحن اليابانيين نفهم القاء القنبلة الذرية على مدننا مقترنا باخطائنا التي ارتكبناها في الحرب العالمية الثانية وقبلها. رغم اننا نحمل في مشاعرنا وتفكيرنا الكراهية الاشد للقنابل النووية واليابانيون اكثر شعب في العالم ينتقد السلاح النووي ويكرهه ويدعو الى التخلص منه. لقد دفعنا الثمن وبقيت لنا مشاعر الحزن والمرارة ولكننا نجحنا الى حد مقبول في تصحيح اخطائنا في هذا المجال.

المسألة هنا ليست متعلقة بالذوق، او الحجم. انها مسالة فرد اغتصبت ثقافة وطنه، واغتصبت عاداته، ان الرواية هنا تتحدث عن معنى اغتصاب الوطن، واغتصاب الثقافة. ان الملابس التي قدمت هنا للاجئين تستهتر بشكل همجي بنظام القيم في الوطن العربي هذا النظام الذي يشمل ملابس المرأة المسلمة والمسيحية على السواء. اذن الاهم قبل المساعدة المالية هو ان نفكر بثقافة الاخر الذي نقدم له المساعدة.

أذكر من تجربتي الشخصية حادثة صغيرة لا انساها. كنا في زيارة لليمن في تموز ١٩٧٠ م، وكانت اليمن وقتئذ تعاني من الجوع. وعندما توقفنا في قرية صغيرة بين عدن وصنعاء، اقترب مني صبي لا يتجاوز عمره عشر سنوات ومد يده دون ان ينبس بكلمة واحدة. كان صامتا مضطربا وبسهولة يستطيع المرء ان يرى الحرج الشديد الذي يعانيه. لقد قدرت عندئذ انه يمد يده للمرة الاولى. تلك الحادثة بقيت حية في نفسي وما عداها من تلك الزيارة ذهب في الضباب، لانني فهمت من ذلك المنظر معنى التوتر الحاد الذي يعانيه الانسان عندما يطلب شيئا من الآخرين. انه يجتاز حاجزا روحيا. ولذلك لا بد من وجود سبب قوي يهدد حياة السائل والا ما استطاع اختراق الحاجز الداخلي، فما هو هذا الشعور الحرج الذي يطلع من داخلنا عندما نطلب شيئا من الاخرين؟

ان المهم في النهاية هو ان علينا ان نقبل قيم المجتمعات الاخري كما هي دون أن نشوهها او نخفض من قيمتها على ضوء قيمنا نحن. وعلينا اذن ان نرى المجتمعات الاخرى كما هي، وان نقبلها كما هي عليه.

مسؤولية العمل والنظر

العربي بصورة عامة يخاف الله. خلال اقامتي الطويلة في مصر كنت أحتاج احيانا عاملا لتصليح أنابيب الماء او لتصليح شيء ما في البيت وكان اولئك العمال ياخذون مني اضعاف أتعابهم لاني اجنبي ربما ولكنني اهتديت الى طريقة تخفف من جشعهم احيانا فكنت أقول للعامل مثلا: ألا تخاف الله؟ انا سأطالبك بالنقود الزائدة التي اخذتها مني يوم القيامة. الجميع كانوا يخافون فعلا ويأخذون أجرهم في حدود ما كانوا يسمونه الحلال. لكي نفهم سلوك الرجل العادي في البلدان العربية. علينا ان ننتبه دائما لمفهومي الحلال والحرام.

الصحراء تنحت الروح وتدبغ الجلد وتدمر الوعي بالوقت والفراغ. الصحراء واسعة بالتاكيد ولكنها لا تطلب نظرة شاملة كلية يقول تيودول مونو، وهو عالم فرنسي نذر حياته للصحراء، يقول: انا اتجول في الصحراء ونظري دائما يتوجه الى اصغر الاشياء وادقها... جمال الصحراء في حركة الظل والضوء.

الصحراء تحب السكينة والحكمة. فالضوضاء و السلوك الاحمق ليسا من الصحراء.

يقال عند البعض في وصف الصحراء: سوط السكينة، اي ان السكينة في الصحراء تقود دائما الى سكينة اعمق واعمق وكانها تساط فتسرع في الدخول

شيء أخر. قد يعتقد البعض ان الوقت في السجن أطول من غيره. أعتقد اني أحس بالعكس تماما. فالنهار يمر بسرعة لا بأس بها، ربما لان لا شيء يحدث او ربما لان العمل شيء مفقود. أظن ان للقراءة والحلم دورا كبيرا في ذلك. ثم ان الوقت غير موزع على شكل ساعات ودقائق، زمن اجتماعي وزمن اقتصادي وأخر ثقافي الخ. انه زمن غير قابل للتوزيع ينقضي من خلال قطع من الانفعالات والاحلام والحوار الاخوي الانساني.

الناس صامتون لا يتحدثون ولكننا نسمع صرخة من خلال ذلك الصمت الخانق، صرخة تخبر عن نفسها بوضوح وقوة. وها أنذا أتلمس جذور تلك الصرخة واسبابها وأقدم بعض النقاط التي تسم الشخصية العربية المعاصرة وهذه الملاحظات التي سأذكرها هي نتائج تجاربي في الاقامة في مصر خاصة والبلدان العربية الاخرى بصورة عامة. انني أؤكد باستمرار انني أعطيت القضية العربية عمري كله فمن حقي – ربما – ان أقول شيئا مباشرا أجمله في الافكار التالية!

أعتقد ان القمع هو داء عضال في المجتمع العربي ولذلك فان اي كاتب اوباحث يتحدث عن المجتمع العربي دون وعي هذه الحقيقة البسيطة الواضحة فانني لا اعتبر حديثه مفيدا وجديا. اذ لا بد من الانطلاق بداية من الاقرار بان القمع – بكافة اشكاله – مترسخ في المجتمعات العربية. هل هناك فرد مستقل بفردية في المجتمع العربي؟ المجتمع العربي مشغول بفكرة النمط الواحد على غرار الحاكم الواحد، والقيمة الواحدة والدين الواحد وهكذا.... ولذلك يحاول الناس ان يوحدوا اشكال ملابسهم وبيوتهم وأرائهم. وتحت هذه الظروف تذوب استقلالية الفرد، وخصوصيته واختلافه عن الاخرين. أعني يغيب مفهوم المواطن الفرد لتحل مكانه فكرة الجماعة المتشابهة المطيعة للنظام السائد.

وهذا العطش يقودنا الى معنى الصبر. يروي الطوارق الحكاية التالية: أوصى رجل عجوز وهو على فراش الموت ابنه فقال: يا بني! اذا أردت ان تعيش حياة ناجحة فلا تشرب سوى الماء الطازج ولا تأكل الا الطعام الجيد ولا تركب غير الجمل الأصيل الممتاز. فرد الابن قائلا: يا ابي! كيف يستطيع رجل فقير مثلي يفعل ما طلبت؟ قال الاب: تحمل العطش الى النهاية عندئذ كل ماء يصبح طازجا ولا تأكل قبل ان يعضك الجوع بقسوة عندئذ يصبح كل طعام شهيا، وامش الى جوار الجمل حتى يهدك التعب فاذا ركبت اي جمل سيكون اصيلا ممتازا.

عندما يعامل الشعب على نحو سيء فان الشعور بالاختناق والتوتر يصبحان سمة عامة للمجتمع بكامله.

بعد غروب الشمس يهب نسيم مريح يعبر مدينة القاهرة، ولكن رغم بركة الطبيعة وبركة نهر النيل الذي يرسل نسيما منعشا فان شعور الناس المكسر في النهار يستمر حتى النهار التالي!

في الآونة الاخيرة عندما أزور القاهرة، فانني أتجه من المطار مباشرة الى بيوت اصدقائي وأتجنب مدينة القاهرة وشوارعها. وهذا الواقع يشعرني بالكآبة: أنا اجنبي أكره الشوارع وأكره الاسباب التي أدت الى هذه الكآبة ومشكلتي تنتهي بخروجي من القاهرة (هل تنتهي فعلا؟) بينما يشعر أصدقائي أضعاف ما أشعر به ولكنه وطنهم وعليهم ان يتابعوا الحياة بكل توترها واختناقها هناك!

كل هذا يعني غياب حرية الرأي. وحرية الكلام. عندنا في اليابان نقول عندما لا نستطيع ان نتكلم بحرية: عندما أفتح فمي فان هواء الخريف ينقل البرد الى شفتي. والعربي عندما لا يستطيع ان يصرح بما في نفسه عليه ان يقول تحت لساني جمرة.

ذلك ان ظروف المجتمع العربي الشديدة تحتاج الى جمرة بدلا من تعبيرنا عن البرد.

وفي سياق الكلام عن الحقيقة فانني أضيف ان الناس في الوطن العربي يخبئون الحقائق التي يعرفونها حق المعرفة، فعلى سبيل المثال زرت شخصي منطقة تدمر خمس مرات وزرت متحفها ولكنني لم اعرف ان فيها سجنا مشهور اسمه «سجن تدمر» بالطبع حتى الان لا أعرف موقع ذلك السجن! ان الخوف يمن المواطن العادي من كشف حقائق حياته الملموسة. وهكذا تضيع الحقيقة وتذه الى المقابر مع اصحابها.

كثيرا ما واجهت هذا السؤال في البلدان العربية: لقد ضربتكم الولايات المتحدة الامريكية بالقنابل الذرية فلماذا تتعاملون معها؟ العرب عموما ينتظرون من اليابانيين عداء عميقا للولايات المتحدة الامريكية لانها دمرت المدن اليابانية كافة. ولكن طرح المسألة على هذا النحو لا يؤدي الي شيء. علينا نحن اليابانيين ان نعي اخطائنا في الحرب العالمية الثانية اولا ثم ان نصحح هذه الاخطاء لاننا استعمرنا شعوبا اسيوية كثيرة ثانيا. وأخيرا علينا ان نتخلص من الاسباب التي ادت الى القمع في اليابان وخارجها. اذن المشكلة ليست في ان نكره امريكا ام لا. المشكلة في ان نعرف دورنا بصورة صحيحة ثم ان نمارس نقدا ذاتيا بلا مجاملة لانفسنا بعدئذ نختار الطريق الذي يصحح الانحراف ويمنع تكراره في المستقبل. اما المشاعر وحدها فانها مسألة شخصية محدودة لا تصنع مستقبلا. من هذا الموقع نفهم مأساة هيروشيما وناغاساكي. ونفهم علاقتنا مع العالم. نحن اليابانيين نفهم القاء القنبلة الذرية على مدننا مقترنا باخطائنا التي ارتكبناها في الحرب العالمية الثانية وقبلها. رغم اننا نحمل في مشاعرنا وتفكيرنا الكراهية الاشد للقنابل النووية واليابانيون اكثر شعب في العالم ينتقد السلاح النووي ويكرهه ويدعو الى التخلص منه. لقد دفعنا الثمن وبقيت لنا مشاعر الحزن والمرارة ولكننا نجحنا الى حد مقبول في تصحيح اخطائنا في هذا المجال.

سافرت الى البلدان العربية وكنت قد تجاوزت الثلاثين من عمري ورأيت وقرأت وتحدثت الى الناس في كل مكان نزلت فيه. لقد عاينت بنفسي غياب العدالة الاجتماعية وتهميش المواطن واذلاله وانتشار القمع بشكل لا يليق بالانسان. وغياب كل انواع الحرية كحرية الرأي والمعتقد والسلوك وغيرها. كما عرفت عن قرب كيف يضحي المجتمع بالافراد الموهوبين والافراد المخلصين، ورأيت كيف يغلب على سلوك الناس عدم الشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع وتجاه الوطن ولذلك كانت ترافقني أسئلة بسيطة وصعبة: لماذا لا يستفيد العرب من تجاربهم؟ لماذا لا ينتقد العرب أخطاءهم؟ لماذا يكرر العرب الاخطاء نفسها؟ نحن نعرف ان تصحيح الاخطاء يحتاج الى وقت قصير او طويل. فلكل شيء وقت ولكن السؤال هو: كم يحتاج العرب من الوقت لكي يستفيدوا من تجاربهم ويصححوا اخطاءهم، ويضعوا أنفسهم على الطريق السليم؟!

يقول الناقد الياباني شوإتي كاتوفي حديث مع الاستاذ يوكيهيكو كاتاوكا، يقول عن الصلة بين اليابانيين!

"الانا يعتبر الاخر بيئة فيزيقية فقط، ولا يعتبره وجودا موضوعيا حيا مثله" ان هذا الناقد يتكلم على الحالة السيكولوجية عند اليابانيين، يرى انهم أصبحوا منغلقين على الاخرين.

وهو يقصد ان العلاقة بين اليابانيين أصبحت ضعيفة، فالفرد الياباني منطو على نفسه، ومنكمش تجاه الاخرين. اذن الموقف السليم هو ان نرى الاخر موجودا وجودا حيا مثلنا تماما. هذا الموقف اساسي للغاية عندما نواجه ثقافة الاخر وهنا ثقافة البدو او الثقافة العربية كلها، او ثقافة بلدان العالم الثالث.

مشاكل بلدان العالم الثالث كثيرة وخطيرة. والفقر موجود بقوة في قاع المجتمع، ولكن من الضروري ان نفهم ان الفقر في اي منطقة من العالم له ميزات خاصة بتلك المنطقة وبالتالي تكون معالجته مرتبطة بخصوصية معانيه وارتباطاته. المعيار الذي يعبر عن الفقر مختلف من بلد الى بلد ومقياسه مختلف.

ان المهم في النهاية هو ان علينا ان نقبل قيم المجتمعات الاخرى كما هي دون ان نشوهها او نخفض من قيمتها على ضوء قيمنا نحن. وعلينا اذن ان نرى المجتمعات الاخرى كما هي، وان نقبلها كما هي عليه

الظاهرة الغريبة

ان الحاكم العربي يخاطب الشعب بكلمة: يا أبنائي وبناتي. عندنا نعتبر هذه الكلمة اهانة بالغة اذا استعملها مسؤول مهما كان كبيرا. نحن لا نقبل بهذه الصيغة نحن نقول لرئيس الوزراء انت حر في بيتك ولكن خارج البيت نحن لا نسمح لك. نحن نعرف ان مكانة الاب شبه مقدسة في البلدان العربية داخل الأسرة استنادا الى الدين والأعراف والأوضاع الاجتماعية التقليدية ولذلك فالاب

وفي النهاية أيضا لا بد ان أشكر بصورة خاصة الصديق وفيق خنسة لانه ساهم في تشجيعي لأكتب هذا الكتاب. لقد قال لي مرارا: حتى الأعمى اذا أمضى أربعين سنة في مكان، استطاع ان يرى شيئا يستحق الكتابة. وهذا التشجيع دفعني لانجاز هذا الكتاب، علاوة على انه راجع النص وصوب الكثير مما تعثرت في التعبير عنه بلغة سليمة.

فاذا وجد القارىء الكريم فيما قدمته بعض المتعة والفائدة فإن ذلك هو ما قصدته ورجوته، واذا لم يجد فإنني أعتذر عن تقصيري وكما قال شاعر عربي:

صح مني العزم والدهر أبى!